

في الاصطوح العلمي :

الأزهر

بين الجامعية والمدرسية

بقلم محمد طه الحاجري

شعاع من أشعة الروح الجامعية النفاذة ، فتثير فيه طبيعة الثورة على تلك اليد الثقيلة الباطشة

وتتنازع الروحان الهيمنة على العلم ، ولكن الغلبة للروح الجامعية مهما أقيمت في وجهها الصواب ، واكتادت سبيلها العقاب ؛ ذلك أن قوتها من قوة العلم ، والعلم قوى غلاب ، لا يصدده صاد ولا يقلبه غالب . والروح المدرسية روح مصطنعة ، أوجدها الضعف ، ودعمها الاستعمار ، وقام من حولها دعاة الذلة والمسكنة يسندون ما وهمي ، ويرأبون ما تصدع ، ويلونونها بالوان فاقمة تأخذ بأبصار الغفل السذج

هذا إلى أن الروح الجامعية روح عريقة في مصر تضرب إلى حدود بعيدة من تاريخنا العلمي ، وتمثل في ذلك النوثب الفكرى المجيد الذى يبدو - في أروع مظاهره - في ذلك التراث العلمى الذى خلفه أجدادنا من رجال الأزهر : جامعة العلم ومثابة العلماء مدة من القرون مديدة ، جديرة أن تلبسنا ثوب الفخر ، وتقوى في نفوسنا الاعتزاز بالروح الجامعية ، وتبث فينا القوة على تمزيقها ودفع المعتدين عليها ، دون أن نفرقنا في ذلك الأهواء المقيتة ، وتوزعنا المصيبات الفارغة . بل كلنا أمام العلم والتاريخ جامعيون : نستمد من روحنا الطيبة وتاريخنا الجامعى قوة على قوة وعزة فوق عزة ، ونستمسك بجامعيتنا ونستعصم بها من عوامل الضعف أو التسفل ، ومن منازعة أهواء الحياة ، والتفريط في جانب العلم فلست أذهب مذهب القائلين بأن الروح الجامعية في مصر وليدة الجامعة الأولى أو الثانية ، أو أنها جاءت إلينا من أوروبا مع المائدين إليها من المصريين ، أو مع الأساتذة الأجانب القادمين أو المستقدمين ؛ قلنا لجامعيتنا الأصيلة المنبعثة عن أقدم الجامعات ، ولنا تقاليدنا العلمية الصحيحة التى تشبع في أنفسنا الرغبة العلمية وترضى فيها العزة القومية ، وتبعث فيها المضاء والحمة ، وتمصنا من مهاوى الروح المدرسية التى يتكاثف رائب الاستعمار وأبواقه وأنصاره والمخدوعون فيه والمؤمنون عنه على تثبيت أقدامها ، ونشر سمومها ، وتزيينها في أعين الغفل الواقفين عند الظواهر ، الفتونين عن الحقائق ، في أسماء سموها ما أنزل الله بها من سلطان : من النظام والجمال ومراعاة الزمن ومسيرة الحياة ومطالب العيش ، وما إلى ذلك من المبارات الخداعة

وتلك هى الخدعة التى نخشى أبغ الخشية وأعظمها اعتلاجاً

تسيطر على الدراسة المالية في مصر روحان ، ما زالتنا تضرعان وتنتضلان ، كما يضرع الحق والباطل ، في عنف وقسوة حيناً ، وفي هدوء وهينة حيناً آخر . إحداهما روح جامعية تقوم على تمثيل العلم في أصح صوره وأدق معانيه ، وتهذيب العقل في أوسع باحاته وأكل مجاليه ، وتربية المللكات المالية التى يقوم بها ذلك العالم الصغير ، وتطلب الحقيقة في مختلف أشكالها ، وبشئ وسائلها ؛ والأخرى روح مدرسية تعتمد على قشور من العلم لا تضي عن العلم شيئاً ، وتلقين لبعض الحقائق المقررة كأنها حقائق مطلقة ، وإغفال لحزمة العقل والمللكات الانسانية لأن الأمر أهون من ذلك فيما يزعمون

والأولى روح مطلقة تأبى التقيد ، بعيدة الأفق لا يكاد يمدحها حد ، إلا ما اقتضته طبيعة العلم واستلزمته أساليب التفكير الصحيح . والأخرى لا حياة لها إلا في أنقال من القيود المرهقة ، وإسداد من الحدود الضيقة ، توقف الفكر ، وتبلد العقل ، وتمطل المواهب ، وتجعل من الرجل آلة طيعة ، وكائناً منفعلاً لا فاعلاً . ففرق ما بين الروح الجامعية والروح المدرسية ، هو فرق ما بين الروح الفاعلة المختارة ، والآلة المنفعلة النفاذة . تلك توجه العلم للمسلم ، وتطلب الحقيقة من أجل الحقيقة ، وتقدر المسائل العلمية تقديرًا ذاتياً ، لا يخضع للهوى ، ولا يتكيف بغاية معينة مرسومة ، ليست من العلم ولا من الحق ولا من الحياة الفاضلة . وهذه جعلت العلم مركباً إلى العيش ، ووسيلة إلى نوع من الحياة الدنيا ، وآلة صماء لهيئة بغرض محدود وإمابة هدف معين ، فوضعت له المناهج والرسوم ، وثقل بالأصناف والقيود ، وأقيمت من حوله الأسداد والحدود ، وحصن من أن تصل إليه

مدينة . وتصبح تلك الجامعة الكبرى ولاهم لها إلا تخرج أولئك وزويدهم بما لا بد منه لأمتهم ! وباضعة التاريخ المجيد إذن ، وباهوان الاسم الكبير الضخم ، وبالأسخريه من تلك الصفة الجامعية التي وسعوا بها تلك المدرسة !

كم يمتلئ صدري أسى وحسرة حتى ليكاد قلبي أن ينفطر حين أشعر بذلك المصير الذي أخشى أن يهوى إليه الأزهر في سبيله إلى الإصلاح ، ومسرعه نحو التجديد ، لولا أمل ينمر قلبي في حكمة الأستاذ الأكبر وبصيرته ، وروحه الجامعية التي تتجلى في أحاديثه وخطبه ، وفي أنه يترسم الأستاذ الامام « قدس الله سره » في خطواته الإصلاحية ، ومراميه العلمية

إن الضعف النفسى هو الثغرة التي تنفذ منها الروح المدرسية إلى الأزهر . فما أكثر ما تضيق النفوس بالكمال ، وتنبوء بتكاليف المثل الأعلى . ولكن الأمر في الإصلاح العلمى يجب ألا ينزل على حكم الضعف ، فالتعلم يتطلب بطبيعته القوة المتحركة ، والمزعة المصممة ، كما يجب أن يسمو المصلح فوق الاهواء فلا يدهن فيها ، وفوق شهوات النفوس فلا يتألف عليها أو يتعلقها

أما لا أقول إن « العلم زبال » كما كان يقال في الأزهر ، فقد تطورت الحياة الاجتماعية تطورا لا يسبغ ذلك القول ؛ ولا أقول إن العالم يجب أن يعيش في صومعة يتابع فيها دراسته ، وبوالى فيها تأملاته ؛ أو يقنع بالدون من العيش في مقابل طموحه العلمى ، فهذا مالا سبيل إليه مطلقا ؛ ولكنى أقول يجب ألا يكون العيش غاية العلم ، فانه متى صار أداة لمرافق الحياة وجب أن يتكيف بما تقتضيه ، لا بما يقتضيه البحث العلمى والحقيقة المنشودة . وأنى مسخ للعلم وتحويل له عن سبيله أشنع من هذا ؟ وإنى أعيد الأزهر -- وله من ماضيه المجيد معاذ ومستصم -- أن يحقر تاريخه ، وينكر ماضيه ، ويكون صاحب هذه الجناية . ثم لعله مع هذا لا يوفق في نهضة الترف والرفاهية والحياة البكرية لرجاله ، وبالحما من عثرة !

وما أحقّه إذن بقول الله جل شأنه : خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين

على أن الحياة لا تضن على الرجل الكريم الذى يذل نفسه في سبيل العلم بما يضمن له راحة البال ، وهدوء الضمير ،

في القلب أن يقع الأزهر في جبالها ، وأن يتردى في مهواتها . وزجوا ألا يكون اندفاعه في سبيل الإصلاح والتجديد مفشياً على بصره أن يتنبه إليها ، وألا تكون مسأيرته لروح العصر صابرة له عن روح العلم وصبته التي صبغ عليها ، وألا ينسبه جديده الذى يشتد عدواً في طلبه وتحقيقه عن تقاليد العلمية الأولى التي تفخر بها مصر والشرق العربى بله الأزهر نفسه

ولانه لحقيق بالأزهر في وقاره ورزاقته ، وزمامه بيد الأستاذ الراعى في بصره وحكمته ، ألا يمنعه طلب الجديد عن التمسك بتقاليد ، وألا تخدعه مطالب الحياة عن روجه الجامعية التي قام عليها بناؤه ، وارتفع بها مجده ؛ ولعله لا يثني في نفعه ما خلفه العهد المشثوم من آثار لتلك الروح المدرسية المشثومة ، كانت هي القاضية عليه ، لو طال بها الزمن فيه ، في غفلة من هؤلاء وإغماض من أولئك ، لولا لطف الله بنا ورحمته عليه

إنما ينبغى أن يكون أساس الإصلاح في الأزهر هو الأخذ بأساليب البحث الحديثة ، وبجراحة الرقى العلمى في مجالاته العليا ، ومسيرة الحركة العلمية فيما يتصل بنواحي دراسته ، والاتصال بالحياة المصرية اتصالاً نبيلاً يمينه على تأدية رسالته ، إذ بهي له وسائل الإصلاح الاجتماعى ، ويمهد له سبل الدعوة إلى الحق والفضيلة والدين ، مع الاحتفاظ بتلك الروح الجامعية التي تأبى أن تنعبد لما دون العلم من المطالب الدنيا ، وتلك الصوفية العلمية التي تفرض على صاحبها الفناء في العلم ، والاندماج في الدرس ، والترفع عن الدنيا . وللأزهر من نفعه في ذلك شواهد باهرة وآيات ظاهرة : فليس في ذلك القول ما يسوغ لقائل أن يرميه بأنه خيال شاعر أو حلم نائم

لا ! بل تاريخ العلم كله ، وسير العلماء الغابرين والمعاصرين ، شاهد بأن الروح العلمية الخالصة التي ترفع العلم فوق كل اعتبار ، وتذهب به إلى منزلة من التقديس عالية ، هي وحدها التي ينبغي أن تسود جامعات الدرس ومعاهد البحث ، وهي وحدها التي تخلع على صاحبها ثوب المجد ، وترفعه إلى منزلة الخلود

فليس « تمصير » الأزهر أن ينزل به إلى تلك الدركة الدنيا من الحياة حيث يضطرب الناس ويتمايشون ، وأن يمد أهله لمرافق الحياة وقضاء ضرورات العيش ليس غير ، ليصير أحدهم معلم صبيان ، أو مأذون قرية ، أو امام مسجد ، أو واعظاً في